أمـــي وأبـــي وأنـــا

نـاصــــــــر الـربــاط *

ليسَ صحيحًا أنّ الأطفال الصغار الذين لا يتكلّمون بعدُ لا يتذكّرون. بل وليس صحيحًا أنّهم لا يمتلكون خيالاً خصبًا يستعملونه في حبكِ القصص. ولكنّ قصصهم، بحُكْم قلة تجربتهم وضيق اطّلاعهم على العالم الواسع حولهم، تَزْخر بالفجوات التي لا يُمْكنهم ملؤها بتفاصيل من الحياة مرّوا بها أو شاهدوها أو سمعوا عنها أو قرأوا عنها. عليهم، بكل بساطة، أن يتخيّلوها. ولذلك فمخيّلةُ الأطفال، حتى بعْد أن يبدأوا بالكلام ولسنين قليلة تالية، فضفاضةٌ، وذكرياتُهم زاخرةٌ بدندشاتٍ غريبة وتركيباتٍ عجيبةٍ لا يَمْلك الكبارُ أمامها إلاّ التساؤل: من أين أتوا بها؟

أنا أقول: من خيالهم الواسع الذي كان أرحبَ قبل أن يبدأوا الكلامَ ويَحْشوا أذهانَهم بلغطِ الكبار وقواعدِ حياتهم وتفاصيلِ علاقاتهم ومَشَاكلِهم ورغباتِهم وخيباتهم. وتَزْحم هذه المشاغلُ، التي تتراكب مع العمر، عقلَ المرء، فلا تترك فيه كبيرَ مكانٍ لذكرياتِ ما قبل الكلام التي كانت شاغلَه الأوحدَ في بداية حياته. فتغادر هذه الذكرياتُ مكانَها مكسورةً، وتختفي تاركةً ظلاً باهتًا من وجودها السابق، هو ما يُعرِّفه أغلبيةُ الناس بـ «الخيال الطفولي» ـ وهو في الحقيقة بقايا مبتورةٌ من ذكريات حقيقيةٍ مطعَّمةٍ ببعض الخيال. ولا يُستثنى من ذلك إلاّ ما نَدَرَ من الأفراد المتميِّزين الذين لا يحافظون فقط على مَلَكَةِ خيالهم ريّانةً نَضِرةً، بل ويحافظون أيضًا على ذكرياتهم الأولى قبل أن تَدْفعَها مشاغلُ الحياة اليومية البالغة إلى غياهب النسيان.

أنا واحدٌ من أولئك الذين يتذكّرون أحداثَ ما قبل الكلام وقبل التعبير: مغامراتِ الطفولة الخالصة التي لا تحتاج إلى روابطَ أو تبريراتٍ منطقيةٍ لكي تستقيم في الفكر وتقدِّمَ للطفل إطارًا لفهم عالمه الجديد. ولا أظنّ أنّ من السهل روايةَ هذه القصص التي لم تنسَّقْ وفق سياقٍ متسلسلٍ بدايةً، بل هي انطباعاتٌ وصورٌ وتفسيراتٌ غيرُ منطوقة تَمْنح العقلَ الطريَّ مرتكزًا للتعامل مع ما يجري حوله، خصوصًا ما يَحْصل بعيدًا عن نظره ولكنّه يرى نتيجتَه في مأكله وملبسه وأهله ومحيطه وتغيُّرِ الضوءِ حوله وما إلى ذلك من التفاصيل الغامضة.

وهنا أودّ أن أقصّ عليكم كيف حاولَ عقلي الصغيرُ فهمَ العلاقة بين الشخصين اللذيْن أحاطاني بالرعاية والاهتمام منذ البداية، واللذيْن اتّضح لي فيما بعد أنّهما أمي وأبي، حتى قبل أن أفرّق بيني وبين الآخرين في مستهلّ إطلالتي على الدنيا.

لعلّ أول ما أَذْكره هو مَلْمَسُ يد أبي وهو يَحْملني ويقدِّمني إلى أمي. يليه، بقليلٍ، أثرُ ثديِ أمي على فمي وطزاجة الحليب المنبعث منه على لساني. لكنّ تلك كانت ذكريات دَخَلَتْ مخيِّلتي عن طريق اللمس والطعم من دون أن يكون لها صورةٌ أو صوت؛ فأنا في الأيام الأولى من عمري كنتُ مشغولاً بالنوم والأكل والتعوّد على الضوء ومحاولةِ الرؤية التي لم تتجاوز التركيزَ على خيالات باهتة متحرّكة حولي ولمسافة قصيرة. وكنتُ أَجْهد لضبط عدستَيْ عينيَّ لكي تحدِّدا ملامحَ ما أراه أمامي، وهو ما حدث تدريجيًا. حتى صحوتُ ذاتَ يوم لأرى وجهًا يحدِّق فيّ مبتسمًا، وذراعين تميلان ناحيتي وتتلقَّفاني لتحملاني إلى ما كنتُ قد أصبحتُ معتادًا عليه، مَلْمسًا ودفئًا وطعمًا: ثدي أمي، منبع حياتي. وسمعتُ صوتَ أمي يناغيني، وقررتُ فورًا أنّ هذا الصوت هو منبع الأمان من الآن فصاعدًا. ووجدتُني أُطيلُ النظرَ إلى وجه أمي الذي بدا لي وكأنّني كنتُ أعرفه من قبل. أين؟ وكيف؟ لا أدري. والحقيقة أنّي لم أشغلْ نفسي كثيرًا بحلّ هذه المعضلة، أو بالبحث عن أجوبة لأيٍّ من المعضلات التي بدأتْ تواجهني مباشرةً بعدها، كأنْ أَفْهم الأصواتَ التي كانت أمي تُصْدرها باتجاهي. فقد كان حسبي إدراكي أنّها أصواتٌ محبَّبةٌ ومُحِبَّةٌ، وكفى.

* * *

* ـ كاتب من سوريا، يدرِّس العمارةَ في جامعة MIT، كامبردج.

لكنّ الأمر ازداد تعقيدًا عندما دخل الشخصُ، الذي سيتبيّن لي لاحقًا أنّه أبي، إلى حيّز نظري، وتبيّنتُ صاحبَ الصوت الأجشّ الذي كنتُ أسمعه في الأيام السابقة، خاصةً عندما كنتُ أُحمل على وسادةٍ من الشعر الذي يزغزغني عندما يلامس جلدي، أو أُؤْخذُ من مرقدي الدافئ والمظلم الذي يثير فيَّ شعورًا بالارتياح لكي أَقْبع على بطن أمي. وهناك أتناولُ حلَمتَها بين شفتيّ وأمصُّها، فينثال في فمي حليبُها الدافئُ واللذيذ، وأمضي في عضّي ولعقي ومصّي بنهم إلى أن أرتوي، وأُحمل بعد ذلك ثانيةً ورأسي إلى فوق لكي أتجشّأ. وتَنْسكب قطراتٌ من الحليب من فمي أحيانًا، خاصةً عندما يكون نهمي قد تجاوز طاقتي على الهضم. وبعد القليل من الدحّات الخفيفة على ظهري، عندما تُدْرك أمي أنّي قد بلعتُ ما مصصتُ، تعيدني يداها الرقيقتان إلى يديْ أبي الأكثر خشونةً، فتحملاني إلى مرقدي لكي أعاود إغفائي، إلى أن يحينَ موعدُ الرضعة التالية، أو إلى أن أُفيقَ على صوتٍ ما واندفعَ في البكاء غيظًا على ما سَبَّبَ استيقاظي، فتهدهدني اليدان الحانيتان للنوم ثانيةً.

كانت حدودُ عالمي في الشهور الأولى من عمري هي حيّز البيت الذي كنّا نسكنه، أمي وأبي وأنا، وهو حيِّزٌ لم أغادره إلاّ فيما ندر، ولسويعاتٍ قليلةٍ أُخذتُ فيها إلى الطبيبة أو إلى السوق أو الحديقة العامة أو في زيارة مع أمي لأناس لا يعنوني في شيء وإنْ كانوا يُظْهرون لي كلَّ أنواع التحبُّب. وقد لزمني بعضُ الوقت لكي أفهمَ حقيقةَ العلاقة بيني وبين أمي وأبي، ولكي أدرك أنّها لم تبتدئ مع مجيئي إلى الدنيا، وأنّهما، على ما يبدو، كانا هناك منذ زمن بعيد، وأنّهما يتشاركان في الكثير من الأمور التي لا أَعْلم عنها شيئًا. وقد أثار هذا الإدراكُ حفيظتي: فكيف يُمْكن هذيْن الشخصيْن ـ اللذيْن ظهر لي أنّ همّهما الأول في هذه الدنيا هو إرضائي ـ أن يعرفا أشياء لا أعرفها، أو أن يتواصلا من دون علمي أو حتى وجودي؟

استغرقني هذا الهاجسُ، فلم أجد منه فكاكًا إلاّ في أن أصبح أكثر تطلُّبًا ونرفزةً، ولاسيّما عندما يَحْملني أبي ويكلِّمني ويأخذني بعيدًا عن أمي ويرفعني عاليًا وهو يقهقه، ويسمِّيني أسماء لا أعرفها ولا أفهم مغزاها، وأنا الذي كنتُ قد ابتدأتُ بتعوُّدِ ما فهمتُ أنّه اسمي، خصوصًا عندما يترقرق على لسان أمي ويجيئني مليئًا بالحنان والرقّة والعذوبة.

بدأتُ أفرِّق في التعامل مع أبويّ بالتركيز في استجابتي على أمي، وإهمال محاولات أبي التحبُّبَ إليَّ. وأخذتُ في التشبُّث بأمي عندما أنتهي من الرضاعة والبكاء حالما تدفعني يداها إلى يديْ أبي وتكلِّمه كلامًا لا أفهمه، قبل أن تعاود الالتفاتَ إليَّ والحديثَ معي بمناغاتها المحبَّبة. بل صرتُ أَنْفر من مداعبات أبي وأهرب من يديه عندما تهمّان بحملي من سريري، حتى عندما كنتُ أعرف أنّه سيأخذني إلى أمي وإلى يديْها. وصرتُ بوعي وتصميم أهشّ بوجه أمي، وأُصدر أصواتًا أردْتُها لطيفةً وتحبيبيةً كلّما حَمَلَتْني. وبعد قليل انتبهتُ كيف تنفرج شفتا أمي عن أسنانها وتتألّق عيناها عندما تتطلّع في وجهي وتمسّد رأسي، وفهمتُ أنّ هذا النوع من التعبير هو الابتسام وأنّه مستظرَفٌ، وابتدأتُ بتقليدها خاصةً عندما تبادلني الابتسامَ. وقد كان ردّ فعلها مشجِّعًا جداً عندما ابتسمتُ لها للمرة الأولى: فقد صاحتْ وضحكتْ بل وقهقهتْ وحرّكتْ يديها إلى فوق وتحت بسرعة ثم ابتدأتْ بطرقهما بعضهما بعضًا مُصْدرةً أصواتًا حادةً ومفرقعةً. ونَدَهَتْ لأبي الذي كان بعيدًا في تلك اللحظة ـ وكنتُ بالطبع مُدركًا لذلك ـ لكي يأتي ويشاهدَ بنفسه أولَ ابتسامة لابنه. ولكنّي انتظرتُ حتى سمعتُ صوتَ قدومه لكي أكفَّ عن الابتسام. ولم تفلحْ محاولاتُ الاثنين معًا المتكرّرة في حثّي على الابتسام ثانيةً، حتى عندما ابتدأا هما الاثنان بتحريك وجهيْهما بطرق غريبة ومختلفة وبالابتسام المتكرّر والمبالَغ فيه في وجهي، بل حتى عندما أخذتْ يدا أبي بكركرتي تحت إبطي وعلى بطني وفي بطن قدميّ. فقد رفضتُ رفضًا باتّاً مشاركةَ أبي فَي تبسُّمي وأصررتُ في ذهني على الأقل، على أنّ هذه الوسيلة من التواصل المتودّد محصورة قطعًا بيني وبين أمي. وحافظتُ على وعدي لنفسي لفترة طويلة، الأمر الذي أدّى إلى ملل أبي من محاولة استمالتي أو إضحاكي بل وإلى شكّه في أنّي قادرٌ على الابتسام أصلاً، وهو ما لاحظتُ أنّ أمي تصرّ على تأكيده. وكان ذلك يدفعهما إلى مناقشةٍ يتبيَّن لي فيها أنّ صوتيْهما ارتفعا أكثر مما ينبغي.

كانت تلك هي أولى انتصاراتي.

وازدادت انتصاراتي عندما لاحظتُ أنّ أبي يتعمّد قضاءَ وقتٍ أقلّ معي، وهذا ما عنى أنّي صرتُ أقضي وقتًا أطول وحدي مع محبوبتي أمّي، وأنّه صار يقضي وقتًا أطول وحيدًا أو بعيدًا لا أَعْلم أين ولا يهمّني أن أَعْلم. وصارت أمي هي مَنْ يحملني، وهي مَنْ يعيدني إلى سريري ويُرضعني وينظّفني، في غالب الأحوال وحدها. وكانت تناغشني باستمرار، وترقّق صوتَها مقلّدةً أصواتًا رنينُها جميلٌ ووقعُها لطيفٌ على أذني. وكنتُ أسمع صوتَها يرتفع غاضبًا على أبي عندما تتكلّم وإيّاه وهو بعيد عن مجال نظري، فيما خيّل إليّ أنّه تقريعٌ على تصرّفاته. وصرتُ أرى أبي يجرجر قدميْه لكي يأتي ويتفرّج عليها وهي تلبسني أو تغيّر لي حفاظي أو تحمّمني أو تُرْضعني. ولكنّه أَقَلّ مِنْ لمسي أو حَمْلي، وصار يكتفي في غالب الأحوال بالتفرّج ويعود للاختفاء سريعًا تقرُّبًا وألفةً. وصرتُ أبادلها الابتسامَ دومًا عندما نكون وحدنا، وأحاول أن أرقّق نظرتي إليها كلّما تطلعتْ في وجهي. بل صرتُ أحاول ألاّ أعضّ على حلمتها بشدّة عندما أرضع، على الرغم ممّا في ذلك من لذة، عندما أدركتُ أنّ هذا أحدُ منغّصات علاقتنا. وصرتُ أشبك يدي حول عنقها، رافضًا تركَها عندما تحاول تمديدي على سريري وتركي هناك بعد انتهاء النهار والعودة إلى أبي كما خمّنتُ. وكانت أمي، التي لاحظتُ أنّها مجهَدَةٌ حقّاً، تحاول مسايرتي أحيانًا، كأن تعيد حملي وهدهدتي إلى النوم أو كأن تأخذني في حضنها. ولكنّها في النهاية كانت تعيدني إلى سريري وتُظْلم الغرفةَ فيما عدا بصيص ضوء خافت من زاوية عالية، وتَخْرج إلى عالم الليل المجهول تمامًا بالنسبة إليّ...

سوى أنّ طرفه الآخر ظلّ أبي.

❖ ❖ ❖

صرتُ أكره الليل، لا لأنّه يُبْعدني عن أمي فحسب بل لأنّه يقرّبها أيضًا من أبي، ولأنّهما كان يقضيانه معًا عندما أكون نائمًا رغمًا عنّي، يتسامران ويتحادثان في أمورٍ بعضُها يعنيني بلا شكّ. وكنت أتخيّلهما قريبيْن الواحد إلى الآخر، بل وأحيانًا حاضنيْن واحدهما للآخر، فأمتعض. ولكنّي لا أُحسن التعبيرَ عن امتعاضي إلاّ بالبكاء والاكفهرار في وجه أبي في المرات القليلة التي كنّا نجد نفسيْنا وحدنا. وصرتُ أماهي بين الليل وأبي؛ فهو بعيد وبارد ومجهول وربما مثير. أما أمي فأصبحتْ كالنهار السّاطع الشمس: دافئةً، حانيةً، مضيئةً، مبتسمة. وكنتُ أستعجل طلوعَ النهار لكي ينتهي الليلُ المقيت، مع أنّي أنام خلال معظمه، ولكنْ أيضًا لكي تَدْخل أمي إلى غرفتي كدخول النور وتمدّ لي يديْها وتحملَني إلى صدرها وإلى عيشنا اليومي المشترك التي أردتُه خالصًا لنا وحدنا.

ازدادت مشاركةُ أبي في حياتي مع تقدُّمي في العمر، خاصةً عندما قررتْ أمي إدخالَ أنواع جديدة من الغذاء ـ بالإضافة إلى حليبها ـ إلى وجباتي اليومية. فصارت تقدّم لي خلائطَ ومساحيقَ غريبةً ذاتَ ألوان ونكهات مختلفة، أقبلتُ على تذوّقها مع أنّ أيّاً منها لم يَرْقَ إلى مستوى طعم حليبها ودفئه. وصار أبي يتبرّع بإطعامي هذه الأكلات الإضافية أحيانًا، ربما لكي يَمْنح أمي بعضَ الراحة، أو ربما، وهذا ما رجّحْتُه، لكي يستعيدَ حظوتَه عندي. كان يأتي إليّ ويحملني في حضنه، ويقرّب من فمي ملعقة صغيرةً باردةَ الحوّافّ يكون قد ملأها بواحدةٍ من الخلطات لكي آكلها. وكنت أستجيب أحيانًا وأَحْرن أحيانًا أُخرى، حسب مزاجي ودرجة جوعي عندما يكون أبي هو المُطْعِم. ولكنّي كنتُ دومًا أُقْبل على أكل كلّ شيء تقدّمه أمي، حتى تلك الخلطات الخضراء التي لم أكن أستسيغُها، فقط لكي أبيّن لها أنّي لا أرفض لها طلبًا، وربما لكي أدفعَها إلى أن تعاود العادةَ القديمةَ في الاهتمام بي وحدها من دون أبي.

طبعًا لم تنجحْ خطتي، واضطررتُ إلى أن أقبل بوجودٍ أكبرَ لأبي في حياتي. فقد تدرّجَ من إطعامي إلى إعطائي حمّامي اليوميّ. وصرت ألاحظ كيف يأتي دائمًا مع نهاية النهار لكي يأخذني من أمي بعد أن تكون قد عَرّتْني من ثيابي وحفاظي إلى حوض الحمّام المملوء بالماء الدافئ والمعطّر، ويجلس أمامي يعطيني لعبًا بلاستيكيةً لكي أتلهّى بها عن الفرك والتنظيف، اللذيْن يتابعهما من رأسي إلى كافة أطرافي.

وقررتُ أن أكون صبورًا معه، خاصةً وأنّي أحبّ الماء الدافئ واللعبَ البلاستيكية. ولكنّي سرعان ما أحنّ إلى وجود أمي في الحمّام الصغير والمكتظّ بأشيائي، فأبدأ بالبكاء منذ اللحظة التي يرفعني فيها أبي من الحمّام إلى أن تَدْخل أمي وتستلمني يداها الحانيتان، لكي تبدأ بتنشيفي ونقلي إلى غرفتي وإلباسي ملابسَ النوم وتمشيطَ شعري، قبل أن نجلس معًا لكي تقرأ لي كتابًا أو أكثرَ على الضوء الخافت، وهو ما كان يعلن لي حقّاً انتهاءَ نهار اللعب وابتداءَ ليل النوم. وصرتُ ألحظ بطرف عيني كيف يحاول أبي المسكينُ والمرتبكُ أن يكون مفيدًا: فهو يَحْوص حولنا في غرفتي يعيد ترتيبَ الأشياء، ويناول أمي ما تحتاجه لإلباسي، ويأخذ المنشفة إلى الحمّام. وبعد أن يقوم بكلّ هذه الوظائف الصغيرة، يتطلّع إلينا نحن الاثنين فيرانا وحدةً متآلفةً واحدةً، فيهزّ رأسه ويتمنّى لي نومًا سعيدًا ويخرج من غرفتي، لكي أبقى وحيدًا مع أمي في لحظات صحوي الأخيرة.

❖ ❖ ❖

لكنّ الأمور تغيّرتْ باتجاه التقارب بيني وبين أبي مع بدئي المشيَ؛ فقد أصبح هاجسُه الأكبر تمشيتي في البيت وفي الشارع وفي الحديقة، خاصةً وأنّ الفصل كان ربيعًا وابتدأ الطقس يميل إلى التحسُّن. وعلى الرغم من أنّي كنتُ أفضّل أن أمشي مع أمي فقط، فإنّ حبّي الشديد للمشي والتفرُّج على الحياة حولي دفعني لكي أَقْبل بأيِّ مُرافق، حتى ولو كان أبي وحده! ثم إنّ ذراعيْ أبي أقوى من ذراعيْ أمي وأقدرُ على حملي إلى البيت بعد أن أتعبَ وأحرنَ عن المشي أو الركض وأمدَّ يديّ الاثنتين إلى أعلى علامةً على رغبتي بأنْ أُحْمَلَ. وقد عنى هذا أنّ بإمكاني المغامرة في الابتعاد عن البيت أكثر عندما أكون مع أبي، لتيقُّني من أنّي سأُحمل في العودة. وصارتْ هذه عادتنا اليومية قبل موعد العشاء والحمّام: مشوار طويل مع أبي، في حين تبقى أمي في البيت تُعِدّ العشاء. وصرتُ ألاحظ زهوَ أبي بي، والابتسامةَ الواسعةَ التي تطفو على وجهه كلّما مررْنا بأحدٍ على الطريق وعلّق هذا المارُّ على شكلي أو أسلوبي في المشي أو نظرتي. بل وانتبهتُ إلى أنّ أبي ينتفخ مباهاةً كلّما مرت بنا امرأةٌ جميلةٌ وبادأتْه الحديثَ... عنّي طبعًا. وطفقتُ أبرّر لنفسي استغلالي لذراعيْ أبي القويتيْن في حملي في طريق عودتنا بأنّه يَحْصل على ما فيه الكفاية من الإطراء لكي يَدْفع ثمنَ ذلك جهدًا وحملاً. ولا أظنّ أنّ أبي كان ممانعًا لهذه المقايضة، بل اتّضح لي أنّه مرحِّبٌ بها كما بدا من عودته السريعة كلَّ يوم لكي يأخذني في مشوارنا، ومن طفوح الزهو على وجهه بعد عودتنا. وأظنّ أنّ أمي أيضًا كانت راضيةً بهذا الوضع الذي يتيح لها ساعةً من الراحة بعيدًا عن الانشغال بي وبمتطلّباتي. وقد زاد ذلك الخاطرُ من قبولي بالوضع القائم، بل وتمتعي به، بعد أن تيقنتُ من أنّ أمي، حبيبتي، راضيةٌ به أيضًا.

❖ ❖ ❖

تمتّنت المودةُ بيني وبين أبي مع حلول فصل الصيف عندما ابتدأتْ وتيرةُ مشاويرنا اليومية بالتغيّر نحو الأفضل وطالت مدّتُها. ولما كنّا نعيش في مدينة ساحلية فقد غيَّر أبي من طريقنا اليومي بأنْ صار يأخذني بسيارته الرياضية المكشوفة إلى الشاطئ مع نهاية النهار وانكسارِ حدةِ الحرّ، فأجلس مربوطًا في مقدي العالي خلفه، والنسيمُ يداعب وجهي وخصلاتِ شعري، والشمسُ الرقيقة تمسّد وجهي، وكلُّ الدنيا تمرّ من حولي وعلى الجهتين سريعةً وملوّنةً بألوانٍ برّاقةٍ وخاطفة. وكنتُ أحبُّ هذا الشعور حبّاً جمّاً، وأعبّر عن سعادتي بالتناوب على الصياح والبربرة والتصفيق، وأبي يجاريني ويصرخ أو يبربر معي، فأجيبه مقهقهًا، ناسيًا قراري الماضي بألاّ أضحكَ في وجهه، ونعاود الكرّة مرات عديدة.

وعند وصولنا إلى الشاطئ كان أبي يَخْلع ملابسَه لكي يبقى بالشورت، ويُلْبسني مايوهي الأخضرَ الطويل، ونركض على الشاطئ بين حدّ الموج والرمل، تاركينْ للماء مداعبةَ أقدامنا وترطيبها. وكنّا نقف أحيانًا لنَرْقب قاربًا على البعد ويخبرني أبي عنه أشياء لا أفهمها، ونقف أحيانًا أكثر لنرقب فتاةً جميلةً مستلقيةً على القرب، ولا يقول أبي شيئًا سوى بعض الهمهمة المعجبة، خاصةً عندما ترفع الفتاةُ رأسَها وتنظر إليّ بإعجاب ضاحكةً (فأنا كنت طفلاً جميلاً حقّاً)، ثم تنظر إلى أبي ببعضٍ من إعجاب لكونه أنجب هذا الطفلَ الجميلَ، فيبادلها الابتسامَ زهوًا ويستدير لنكمل سيرَنا بخطًى متأنّيةٍ ومبتهجة.

وكنّا أحيانًا ننهي مشوارَنا عند بائع البوظة ويشتري أبي لنا قمعيْن نلتهمهما على الشاطئ ونوسِّخ وجهيْنا بلطخات حول الشفتيْن نَغْسلها بماء البحر المالح ونحن نضحك. وكانت أمي تأتي معنا في بعض الأحيان، فنسبح نحن الثلاثة عندما يكون هناك فضلةٌ من شمس في نهاية اليوم تَسْمح لنا بالتنشف على الشاطئ قبل العودة إلى البيت. وكنّا أحيانًا نسير على الشاطئ لنتأمّل قواربَ بعيدةً، أو لنلمّ أصدافًا ملوّنةً صغيرةً، أو لنأكل بوظتنا. وطبعًا لا نقف أمام الفتيات الجميلات، وإنْ كانت أمي لا تمانع من تعليقات أبي عند مرورنا بهنّ بل وتجيب عليها بتعليقات مضادة ومداعبة؛ فأمي امرأةٌ واثقةٌ من جمالها ومن تمكُّنها من قلب زوجها ـ وربما أَضَفْتُ، ومن قلب ابنها أيضًا!

تلك كانت أحلى ذكريات سنتي الأولى.

❖ ❖ ❖

لن أرهقكم بالحديث عن تغيّر علاقتي بوالديّ مع قدوم فصل الخريف وعودة البرد. ذلك أنّ هذه التطوّرات تَدْخل ضمن نطاق الذكريات الواعية، عندما صرتُ قادرًا على التعبير عن مشاعري ورغباتي بالكلمات، وبعدها بالجمل القصيرة. ولكنّي سأُنهي قصتي بأنْ أخبركم عن بداية تحولي من التعبير بالأصوات والحركات إلى التعبير بالكلام في تلك المرحلة الوجيزة الانتقالية من عالم خيال الطفولة، كما يَفْهمه الكبارُ إلى عالم الوعي بها. وقد جاءت هذه المرحلة فجأةً وبدون سابق إنذار، على الأقل بالنسبة إلى والديّ اللذيْن كانا قد ابتدأا بالتململ من رفضي الكلامَ وإصراري على المناغاة وإصدارِ الأصوات العديمة المعنى (التي كانت تبدو لهما، على الأقل في بداية الأمر، طريفة).

فقد جلس والداي حولي يومًا على شاطئ البحر مع نهاية الصيف، وهما يأكلان عرانيسَ الذرة المشوية، ويحاولان إطعامي بعضَ حبات الذرة من دون جدوى؛ فأنا كنتُ قليلَ الأكل وصعبَه في الآن نفسه. وكانا هما في قمة محاولاتهما تعليمي الكلامَ... وبلغتين فوق ذلك! وكلٌّ منهما يشير إلى الذُرة بيديْه ويهوبر: «مايز، مايز» تقول أمي، و«درة، درة» يقول أبي. وكنتُ أزمّ شفتيَّ رافضًا الحديثَ والأكلَ في الوقت ذاته، ثم أهمهم ببعضٍ من كلماتي غير المفهومة وأتطلّع إلى كل جهة حولي وأحرّك يديّ. يئس والداي من إطعامي أو تعليمي أية كلمة ذلك المساء، وانصرفا عنّي يتأمّلان الشمس التي كانت قد جَنَحَتْ إلى المغيب أرجوانيةً قانيةً تَنْشر ظلالَها فوق الأفق كلّه. في هذه اللحظة بالذات ضغطتُ على ذراع أمي التي كانت تحيط بخاصرتي وإنْ كانت لاهيةً عنّي. ولما التفتتْ أمي إليّ بوجهها الحبيب والبشوش دائمًا، أخذتُ بالإشارة نحو أبي الجالس على بعد سنتمترات قليلة منّي، فالتفت إليّ هو أيضًا أثناء ذلك. عندها طفقتُ أكرّر بكثير من الشعور بالرضا، وربما بشيء من الودّ الجديد النابع منّي:

«بابا، بابا»، «بابا، بابا.»

كامبردج، ماساتشوستس